ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

نقد العقل الإسلامي لدى أركون: بين الاستفهام والقصد

Arkoun's Critique of Islamic Reason

Between interrogation and intention

د.مغربي زين العابدين Dr. MEGHARBI Zine El Abiddine logiquezino@yahoo.fr	فلسـفة	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة سيدي بلعباس- الجزائر. مختبر الأبعاد القيمية للتحوّلات الفكرية والسياسية بالجزائر- جامعة وهران2

DOI : 10.46315/1714-009-003-016

الإرسال: 2019/05/28 القبول: 2019/10/21 النشر: 2020/06/16

ملخص:

يعدُّ "محمد أركون" من الشخصيات البارزة والمؤثرة في التفكير الإسلامي المعاصر، وصاحب أعمال مختلفة كُتبت بلغات متعدّدة: العربية، والفرنسية والانجليزية. اشتغل "أركون" في جلّ إسهاماته على كلمة رئيسة، وهي الاجتهاد، بحيث عملَ على تفكيك الخطاب الإسلامي الكلاسيكي، لأنَّه يعتقد أنَّ إسلام اليوم مسيَّج بعقليةٍ إسلاميَّةٍ أرثوذوكسيَّةٍ، وهو يعاني إكراهات إيديولوجية صنعتها سلطات كلاسيكيّة.

في هذا المقال، نحاول معالجة المقصد الأركوني في إعادة بناء العقل الإسلامي، وبعض الاستفهامات التي تستوقف القارئ في فهم مشروعه.

الكلمات المفتاحية: اجتهاد؛ تراث؛ نص؛ نقد؛ عقل إسلامي.

Abstract:

Mohammed Arkoun is one of the prominent and influential figure in modern Islamic thinking. He is author of various works written in different languages : Arabic ; French and English. The core of his contributions laid in the key word, Ijtihad, he went to deconstruct the classical Islamic discourse, because he believes that Islam today is closed by Islamic Orthodoxy and it is suffered from the ideological obstacles created by the classical authorities.

This article examines arkoun's attentions to reconstruct the Islamic Raison and our interrogations to understand his project.

Keywords : Ijtihad ; Tradition ; Text ; Critics ; Islamic Raison.

تمهيد:

يصرّحُ المفكرُ "محمد أركون" (1928- 2010) في كثير من اللقاءات الفكرية والمناسبات التأليفية بوعرة المسلك الذي انتهجه لنفسه، والمتمثل بالخصوص في "إعادة قراءة النص المقدس" موضوعاً للبحث، وما تبعه من تجديد في المناهج وأدوات تشغيل، ولم يكن تصريحه هذا، من قبيل الصعوبات التي تعترض الباحث والتي ألفنا إدراجها في تقديم الموضوع، بل الأمر يفوق ذلك، وقد

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

يكون له علاقة مباشرة بالقارئ العربي المسلم خاصة، وكأن المفكر يريد إشراك القارئ في مهمته المرعبة (أركون، م، 1991، ص17)، حتى يدرك آليات ومقاصد مشروعه النقدي، فيتقاسم معه محن الدراسة وتبعاتها، والأكثر من ذلك، أن يمكِّنه من بناء ذات متحرّرة من الذين يمارسون الوصاية باسم الدين، وذات مستقلةٍ في بناء مواقفها النقدية بعقلها لا بعقول غيرها، لاسيما وأنَّ المتطرق إليه لازال يلزم على العربي المسلم الانقياد اللامشروط لتلك الفهوم الكلية والتفسيرات النصيَّة التي وُضعت في حقبة تاريخية صاغها "أركون" في لفظة "الأنظمة اللاهوتية" (أركون، م، 1999، ص313)، التي تعمل على إضفاء الشّرعنة والتّقديس لمختلف للمكوّنات الدينية التراثية، فمثَّلَت في المخيال العربي الإسلامي مساحة مغلقة لما تطرحه من طبوهات يُعَاتب من ينفذ في ممنوعاتها ويفكر في اللامفكر فيها.

هي إذاً، لحظة معاناة، حينَ تجاسَرَ المفكر "أركون" على موضوع "التراث"، ماضيًّا في تفكيك عقله الديني، وكذا، فضاءاته السياسية والاجتماعية والتاريخية الملازمة له، والتي نصَّبت رجالاته على أنَّها "شخصياته رمزية كبرى" (أركون، م، 2000، ص233) أكثر من كونها ذات إنسانية طبيعة، غير أنَّ هذه اللحظة المرعبة تقابلها لحظة أخرى، لا تقل عن سابقتها جرأةً ومعاناةً وتأهيلاً معرفيًّا، هي **لحظة تَلقي القارئ العربي لكتابات المفكر "أركون"**؛ فمن حيث الجرأة والمعاناة؛ فالموضوع له من الحساسية والرَّهافة ما يجعل القارئ يتعامل معه برقة ودقة بعيداً عن تعنيف الأفكار وتجيّيش الوجدان، فكثيرة هي العبارات الأركونية التي قد تصدُم القارئ فتُوقف عنه التفكير النقدي، وتُوقظ بدله المشاعر المنحازة للتراث الديني، وهنا ينزاح القارئ عن السِّياقات النصيَّة؛ فتنفلت المعاني، ولا يجد القارئ أمامه سوى استعاضة هذا الانفلات بسوء الفهم واستحضار الأحكام الجاهزة التي لا تمت بصلة لأخلاقيات القراءة. أمَّا من حيث التأهيل المعرفي، فهو لا ينفك عن سابقيه، بل يُعتبر ذروة سنامهما. إذ أنَّ مهمة القارئ والمتمثلة في اقتناص المعنى المتخفي من وراء اللفظ، تستوجب عليه ممارسة تقنيات ومهارات في التأويل، واستحضار معارف متداخلة تستدعي بعضها البعض، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بِـ"النص الأركوني".

هذه العبارات التي ارتأينا أن تكون استهلالاً لعنوان المقال، تضعنا في صلب الانشغال الذي نروم بحثه، فليس المهم الحكم على مشروع المفكر "أركون" بأنَّه ناجح أو فاشل، بقدر ما نتساءل عن مدى استيعاب القارئ العربي لهذا المشروع الموسوم "نقد العقل الإسلامي"؛ وإعادة النظر في محتوياته وآلياته، لا بغرض التجريح والعتاب كآلية دفاعية يتقنها القارئ عموماً، وإنمَّا بغرض استثمار ذلك المجهود المُعتبر الذي قدَّمه المفكر "أركون"، ولم يتوقف عن تقديمه حتّى وهو طريح المرض.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

لهذا، نقترح: "الاستفهام" و"القصد"، وهو حوار أردناه بين استجواب القارئ لمختلف انشغالات "نقد العقل الإسلامي" ومقاصد النص الأركوني من ذلك المشروع لغةً ومضموناً.

1. النص الأركوني: وقفات استفهامية

يُعدُّ النظر فيما أحدثه المفكر "أركون" في حقل الدراسات التراثية تجديداً مفاهيمياً، وإصلاحاً منهجياً، بل أكثر من ذلك، ثورةً وإقلاعاً جذريًا لما كان يُعتقد في الفكر العربي الإسلامي الكلاسيكي أنَّه صائب لا يعتريه الشّك، ولا يحق لمنتميه البت فيه بالطرق الاستدلالية والمناهج الفكرية. ولنا في ذلك أمثلة كثيرة استوقفتنا ونحن نتفاعل مع خطاباته، من هذه المفاهيم، الاجتهاد؛ اللامفكر فيه؛ الظاهرة الإسلامية...

من هنا، تشكَّل عندنا شعور أوليّ مفاده أنَّ المفكر أراد تجهيز القارئ معرفيًّا ونفسيًّا لما سيعترض طريقه من غوائل ومثالب قد تجز به إلى قفص الاتهام والتخوين ومحاذاة التكفير والخلع من الأمة الإسلامية، لمجرد أن يفكِّر في زحزحة المنظومة الاجتهادية من مجالها الديني القانوني وتوسيعها على أناس آخرين لا يقلّون شأناً عمن سبقهم في تأسيس "القانون بمقاصد الشريعة" كما ذكرها الشاطبي، فتحصيل الأدوات والمناهج العلمية ليست كافية لوحدها، بل لابد، وهو الأهم، الجرأة *The Boldness*، فلماذا هم دوماً وليس نحن؟ علماً أنَّنا لا نختلف عنهم، فكثير هي القواسم المشتركة بيننا وبينهم، هكذا، كان لسان حال المفكر.

أمَّا لسان القارئ العربي المسلم فلم يتوقف عن مساءلة النص الأركوني، فكانت له استفهامات نجملها في عنصرين، الأوّل يخص لغة كتاب المشروع، والآخر متعلق بخصوصية البحث في العقل الإسلامي، وفي مقابل هذا الاستجواب، لم يتردد المفكر "أركون" في الإجابة عن هذين الاستفهامين بعدما أحسَّ بمشروعيتهما، فرفعاً للالتباسات ودفعاً للتلبيسات التي قد تتّبع براءة سؤال القارئ، استضاف النصُ الأركونيُّ استفهامَ القارئ، فأجاب بالكيفية التالية:

أ. **بالنسبة للاستفهام الأوّل**، يقول "أركون": "اللغة الفرنسية مؤيدة للنقد الفلسفي والتاريخي والعلمي عامة، ولها أرضية خصبة من الجهاز المفهومي الداعي إلى المزيد من الدقة والتعمق في النقد. أما اللغة العربية فلا تتحمل اقتران النقد بالعقل الإسلامي" (أركون، م، 1995، صXIII)، ولا يُفهم من هذا القول أنّ منظومة اللغة العربية عاجزة أو قاصرة، وإنَّما استثماراً للمجهود الفكري، وخشية ضياع التحيّين المعرفي الذي واكبه المفكر بمجالسة كبار الفلاسفة، من أمثال "ميشال فوكو" و"بول ريكور"، وبتتبع أهم الأطاريح الفلسفية الغربية المعاصرة، منها "التفكيكية" و"التأويلية"، وبالاستفادة أكثر من الردود النقدية الغربية، آثر "محمد أركون" الكتابة باللغة الفرنسية حتَّى تَسهُلَ مهمة التّواصل والتّفاعل بينه وبين الذين يتقاسم معهم مناهج وأدوات

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

دراسة المجتمعات الإسلامية، فهو نوع من تقليص المسافة الزمنية والمكانية والمعرفية بينه وبين الغرب.

ولتعزيز ما سلف ذكره، يقول أيضاً: "لم يتسع لي الوقت مع الأسف لأقوم بعملين مهمين مجهدين في وقت واحد وهما: متابعة التيارات العلمية المختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية بالاطلاع على جميع ما يصدر من كتب باللغة الغربية؛ ثم إيجاد المصطلحات اللازمة لنقل أجهزة المفهومات المتجددة والمتحولة من كل لغة من اللغات الأصلية (الإنكليزية والفرنسية والألمانية خاصة) إلى العربية" (أركون، م، 1996، ص7)، غير أنَّ التبرير الذي ارتضاه "أركون"، نجد له وجهاً آخر متعلقاً بالأهلية المعرفية والنقدية للقارئ العربي المسلم لإنتاجات فلسفية من جنس ما طرحه "أركون"، ففي موضعٍ فكريٍّ مُستفزٍ، يصرح "أركون": "أن العقل الفلسفي حُذِف عملياً من أرض الإسلام بعد القرن الثالث عشر الميلادي" (أركون، م، 1999، ص195)، ولازال الفضاء المعرفي للعقل العربي الإسلامي مطوَّقاً بمعيقات ايديولوجية، وتاريخية، ونفسية عطَّلت قدرته على استيعاب ما يُطرح، فضلاً عن نقصٍ في تكوينه الإبستمولوجي والمنهجي لمختلف ما يُقدم في العلوم الإنسانية والاجتماعية في الفكر الغربي المعاصر، والأخطر من ذلك كلّه، أنَّ اللغة العربية لدى القارئ العربي المسلم تراجع مستواها بشكل فضيع، فانفصالها عن كنوزها الدينية والمعرفية والفلسفية والعلمية وحتى اللسَّانية حجب عنها التواصل مع مستجدات الفترة المعاصرة.

فكان لزاماً علينا في هذا المقام، أن نتفهمَ حاجة المفكر "أركون" إلى اللغات الأجنبية، وبشكل كبير اللغة الفرنسية، وحرصه على الكتابة باللغة الفرنسية ماثله حرص آخر، "من يُترجم مؤلفاتي إلى اللغة العربية؟" فسؤال منْ يكفل ترجمة كتبه، كان من أولوياته المعرفية والمنهجية، فهو يقول: "وكنت حريصاً دائماً أن أجد مترجماً متمكّناً من اللغتين العربية والفرنسية، متدرّباً بمعاجم العلوم الإنسانية والاجتماعية، لينقل إلى القراء العرب نقلاً وافياً علمياً ما ألَّفتُهُ بالفرنسية ... وازداد حرصي شدةً على ذلك بتعدُّد اتصالاتي بالجماهير من العرب والمسلمين عن طريق إلقاء المحاضرات في جميع أنحاء العالم" (أركون، م، 1996، ص 7).

فلغة الترجمة لا تقل شأناً وقيمةً عن لغة التأليف لدى "أركون"، بل "أركون" نفسه كان يراجع ويناقش بعض المفاهيم التي اجتهد في ترجمتها طالبُه "هاشم صالح" (أركون، م، 1996، ص 17)، لأنَّ الأخير يدرك تمام الصعوبة والخطورة في وضع بدائل لسانية لبعض المفاهيم التي اجتهد في نحتها "أركون"، فهو يحدثنا عن جزء من صعوبة الترجمة، قائلاً: "الترجمة... مسألة معرفة أو عدم معرفة. فالجهل لا ينتج ترجمة صحيحة. ومترجم الفكر ينبغي أن يكون هو أيضاً مفكراً أو مشروع مفكر، وإلا لا داعي لدخوله عالم الترجمة... فعندما ابتدأت بترجمة محمد أركون قبل ثلاثة عشر عاماً واجهتني عدة صعوبات ليس أقلّها الصعوبة التالية: كيف يمكن نقل مصطلحات العلوم

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الإنسانية الحديثة (كعلم الاجتماع، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، والألسنيّات، والسيميائيات، والابستمولوجيا، وعلم الأديان المقارن، وعلم اجتماع الأديان، والفلسفة، والخ..) إلى ساحة اللغة العربية" (أركون، م، 1995، ص 2،3).

ب. **أمَّا الاستفهام الآخر** والمتعلق بخصوصية البحث في العقل الإسلامي، فهو يمثل توجهاً نحو انعتاق العقل من الذهنيات المترسبة في فهم الإسلام، وتمكينه من استئناف القول الفسلفي عبر سيرورته التاريخية، لتنكشف سوءات الخطابات الإسلاموية الناشطة في الماضي والحاضر والمتلبسة برداء شرعية ومشروعية مُعتقدِهَا الإسلامي، ولتنجلي حقيقة الأنظمة السياسية التي ادَّعت تمسكها بالإسلام بعد حصولها على الاستقلال، وهذا ما أطلق عليه "أركون" اسم "تأميم الدين" (أركون، م، 2001، ص 11)، ويصوّره لنا، أنَّه صراع مفتوح بين مختلف القوى السياسوية والحركات الإسلاموية والأصولوية في امتلاك الإسلام، والتاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه السجالات والمزايدات منذ القدم حتّى يومنا هذا. إنَّ الحديث عن العقل الإسلامي هو الحديث عن إسهامات التراث الإسلامي بأوسع معانيه في تشكيل العقل، لاسيما علاقة العقل بـ "المُعطى المنزَّل" (أركون، م، 1995، صXIII) -كما يسميه "أركون"-، ويقصد به القرآن الكريم.

بالفعل، فقد اتَّسم مشروعه الفكري طيلة أربعين سنة بالتعقيد والخطورة، غير أنَّه استطاع أن يُجهزَ منذ بداية المشروع ما احتاجه من العلوم والأدوات؛ فبالرجوع إلى تكوينه المعرفي، يلفت انتباهنا قدرة المفكر "أركون" على قراءة وفهم مختلف المؤلفات الغربية التي شكّلت في مرحلةٍ ما مرجعيته العلمية والفلسفية، وهي تعادل 107 مصدراً غربياً، و208 مصدراً استشراقيًّا (التميمي، حوراء، 2014، ص87، 107) ، وبين قدرته على الكتابة والاسترسال في المواضيع، بحيث أن أبرز كتبه المشكَّلة لمشروعه الفكري لا تقل صفحاتها عن 200 صفحة باللغة الفرنسية، فضلاً عن اشتغاله بالتدريس في الجامعات، وإلقاء المحاضرات العالمية، وكتابة بعض المقالات في مختلف المجلات العربية والأجنبية.

بهذا التشخيص، نكون بلا ريب، أمام ظاهرة فكرية إبداعية قلَّما نجد نظيراتها في العالم العربي الإسلامي، ولكن للأسف لمن نستثمر عطاءاته، ولم نكن آذاناً صاغية لمشروعه الفكري، بل لم نسمح له بالتواصل معنا، بقدر ما تواصلنا ايديولوجياً وعاطفياً مع مهاجميه، فنصوصه الوعرة؛ ومفاهيمه المزعجة؛ ومناهجه المستغربة أُزيحت عن سياقاتها الدلالية والقصدية، فأُسهمت في تشكيل صورة سوداوية تمقتها الأذواق وتنفر منها العقول، بل الأخطر من ذلك، تلك الأحكام الجاهزة عن المفكر، والتي صاغتها بعض الأقلام إلى من لا يتحرَّون الأقوال، فتسارعوا إلى ممارسة القذف والتجريح عوض النقد والمناظرة، وقد نبَّهنا المفكر "أركون" إلى قابلية القارئ إلى التسليم المطلق لمختلف الأفكار التي تبث هنا وهناك دون تحويلها إلى محك العقل ليتبيَّن الغث من السمين،

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

والصحيح من السقيم، فهو يوصف القارئ بأنَّه: "ذاتٌ مشكَّلة بواسطة عقائد ومبادئ يقينية ومقدمات ايديولوجية ومقاييس موروثة، وكلها راسخة في العقل والمخيال ومكوِّنة للوجدان وموجهة ومكيِّفة للإدراك... وعندما يطرأ على هذا النسق المجهَّز القوي مفهوم غير مألوف أو نظرة للعقل غير متلائمة مع الموروث والمعتاد يلتجئ القارئ أو المستمع إلى وسيلة من وسائل الرفض لحماية نسق ذاته حتى لا ينحل ويتفتَّت، فتنحلّ الشخصية... وهكذا تبطل عندئذ المناظرة وتستحيل المواصلة بين العقول والضمائر.." (أركون، م، 1995، صXXV ، XXVI)، فلم يكن حظ المفكر "محمد أركون" من هؤلاء سوى الفهم المغلوط والجهل المتعنت؛ فإن فهمه القارئ فلا يحسن الظن به، وإن جهِلَ مؤلفاته فقد ظلمه، وفي كلتا الحالتين عاش المفكر غريباً ومات غريباً في أوساط من يتكلمون باللغة العربية.

محنة المفكر "أركون" لم تتوقف عند القارئ العربي المسلم، فالتصوّرُ ذاتهُ استُنسِخَ لدى القارئ الغربي (الفرنسي بالخصوص)، فلم تعد الطبقة المثقفة تتعامل مع أفكاره بموضوعية، بل عملت على تصيُّد مواقفه السياسية والدينية وإدراجها ضمن عثرات المفكر، فما كتبه "أركون" في جريدة "لوموند الفرنسية" بتاريخ 15 مارس 1989 حول قضية سلمان الرشدي، قلَّب عليه الرأي العام الفرنسي، فتمّ تجريمه ونبذه ونعته بالأصولي، وهي حالة يراها "أركون" شبيهة بموقف نفساني شبه مرضي (أركون، م، 2001، ص 105)، تتكرّر كلما حضرت ثنائية الإسلام والغرب.

والنتيجة التي نتوصّل إليها، هي أنَّ الصورة التي يمكن تمثّلها في مخيال الأنا القارئ عن المفكر "أركون" أنَّه لم يكن محظوظاً لا في الثقافة العربية الإسلامية ولا حتى في الفرنسية، فهاجس التكفير من جهةٍ، والأصولية من جهة أخرى أحدثا في المفكر شروخاً في النفس وشعوراً بالاضطهاد، وهو ما انعكس سلباً على استقبال فكره لدى العرب والغرب. يقول عنه المفكر "جورج طرابيشي": لم يكن عجز "أركون" فقط في المهمة التي نذَر نفسه لها، على أن يكون وسيطاً ثقافيًّا بين الفكر الإسلامي والفكر الأوروبي، بل عجزهُ تضاعف إلى تسويد نظرة الغرب إلى شخصهِ، كمثقف مسلم (طرابيشي، ج، 2000، ص 134). هذا على المستوى الشخصي، أمَّا على المستوى العلمي، فالأمر لا يختلف كثيراً عن سابقه، لأنَّ مشروعه النقدي الذي أَطْلَعَ النَّاس عليه بدءاً من سنة 1970، لم يحظَ بالحماس والجدِّية كاللتين كانتا لدى المفكر "أركون"، فهو يرى: أنَّ دراسة الفكر الإسلامي لم تلقَ اهتماماً ولا مناقشةً من قبل الأساتذة المستشرقين في الغرب، ولا حتى المسلمين العرب (أركون، م، 1999، ص 326).

هذه الكلمة الموجزة لوضع المثقف والمفكر والفيلسوف الجزائري "محمد أركون" لم تخلُ من الحسرة والتّأسف ونحن نسترجع حضوره الثقافي والشخصي في صورة القارئ العربي والأوروبي وهو يتناول التراث الإسلامي من زوايا علمية مختلفة، وعلى الرغم ممَّا خلَّفه المفكر في حياته وبعد

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

رحيله من سجالات ومآخذ دينية وتاريخية ومعرفية استُدركت عليه وهو يعالج موضوع النص المقدس بأبعاده المختلفة، إلاَّ أنَّه استطاع بجرأته واستفزازه وحماسه، فضلاً عن تكوينه العلمي والثقافي المتميّز من تفكيك الممتنع وخرق الممنوع، وبإعادة بعث السؤال الفلسفي من خلال ممارسة "النقد"، بطرح إشكالية إعادة قراءة التراث الإسلامي وفق مقاربات جديدة لم تكن لسلفه أو معاصريه السبق فيها.

هذا ما سمح المقام لذكره، وحتَّى نواصل استشكال ورقتنا البحثية في أبرز مفهومٍ تصوّره المفكر "أركون"، وهو "نقد العقل الإسلامي"، نقترح مفاهيم أخرى مجاورة نعوّل عليها لملامسة مختلف الآليات والمقاصد التي كانت عضدُه في إعادة قراءة النص المقدس، من بينها: التراث؛ النص المقدس؛ نقد العقل. فكيف شكَّلَ "نقد العقل الإسلامي" لدى "أركون" طريقاً لإعادة تشكيل المنظومة الاجتهادية في الفكر العربي الإسلامي؟ وما مقصده من هذا التّجديد؟

2. العقل والتراث الإسلامي: تتريث أم عقلنة

2- أ التراثُ مفهوماً:

من المعلوم بالبحث بالضرورة، أنَّ طبيعة الموضوع هي التي تحدّد نوعية المنهج، فالوقوف عند المشروع الأركوني من خلال مفهومه المركزي "العقل الإسلامي" والمنهج النقدي الذي ارتضاه لنفسه، يستوجب استعادة أكيدة لمفهوم التراث، ولمَّا كان التراث "مفهوماً وليس فهماً" قد تقاطعت فيه مختلف الآراء التي اشتغلت عليه من المفكرين العرب المعاصرين، من أمثال: "عبد الله العروي"، "طيب تيزيني"، "حسن حنفي" و"طه عبد الرحمن"، فلا ضير أن نستأنس بتعريف "محمد عابد الجابري" وهو يهندس التّصوّر، تارةً بتحديد ماهيته التّاريخية والوجدانية والمعرفية والدينية ...، وتارةً أخرى بإبراز الاختلافات بين المفهوم في حدِّ ذاته والمفاهيم المجاورة له في العقلانية الغربية والعربية. لذا، يعتبر ما قدمه "الجابري" في مادة "التراث" بحثاً أساسيًّا يعينُنَا في مقاربته ومقابلته بتصوّر "أركون".

بدايةً، يجيب "الجابري" عن سؤال ما التراث؟ قائلاً: "هو الموروث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني، هو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر ملفوفاً في بطانة وجدانية ايديولوجية، لم يكن حاضراً لا في خطاب أسلافنا ولا في حقل تفكيرهم، كما أنه غير حاضر في خطاب أية لغة من اللغات الحيَّة المعاصرة التي "نستورد" منها المصطلحات والمفاهيم الجديدة علينا" (الجابري، م، 1991، ص 23). فلفظة "التراث" لا تمت بصلة إلى الحقل الدلالي العربي القديم، ولا بالإطار المرجعي التداولي العربي الحديث والمعاصر، فهو يفرّق بين "التراث" بالمعنى المطروح سابقاً، وبين لفظة "الميراث"، ولتوضيح الفرق أكثر، يقول "الجابري": "بينما يفيد

لفظ "الميراث" التركة التي تَوَزَّعُ على الورثة، أو نصيب كل منهم فيها، أصبح لفظ "التراث" يشير اليوم إلى ما هو مشترك بين العرب، أي إلى التركة الفكرية والروحية التي تجمع بينهم لتجعل منهم خلافًا لسلف. وهكذا إذا كان "الإرث"، أو "الميراث"، هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محله، فإن "التراث" قد أصبح، بالنسبة للوعي العربي المعاصر، عنواناً على حضور الأب في الابن، حضور السلف في الخلف، حضور الماضي في الحاضر" (الجابري، م، 1991، ص 24)، هذا الحضور القوي لمفهوم التراث في الذات العربية المسلمة هو ما يجعلها دوماً تستذكره حاضراً وغائباً، فنعتقد بالتراث مقوّماً ضروريًّا للتطلع لمستقبل واعد، عنوانه "نهضة عربية معاصرة"، لاسيما إذا تعلق الأمر بالحديث عن الأخلاق والقيم في تراثنا العربي الإسلامي، فقد وضّح الباحث "رباني الحاج" في مقالٍ موسوم بـ: "الجابري والمشكلة الأخلاقية في التراث العربي الإسلامي" إسهامات "الجابري " في تفنيد بعض المغالطات التي جعلت من التراث العربي الإسلامي متّبع غير مبدع لموضوع القيم والأخلاق (رباني، ح، ص 42).

وإلى سؤال آخر متعلق بالتحديد الزمني لتاريخية لفظة "التراث"، يبدي "الجابري" انحرافاً نسبيًّا عن السؤال ليتجه إلى قبول العصر الجاهلي لا كتراث مادي ومعنوي، بل كمكوّنٍ أسهم في تشكيل وعي العقل العربي، "ولكن لا العصر الجاهلي كما عاشه العرب ما قبل البعثة المحمدية، بل العصر الجاهلي كما عاشه في وعيهم عرب ما بعد هذه البعثة: العصر الجاهلي بوصفه زمناً ثقافياً تمت استعادته وتم ترتيبه وتنظيمه في عصر التدوين الذي يفرض نفسه تاريخياً كإطار مرجعي لما قبله وما بعده" (الجابري، م، 2009، ص 61).

هذه العبارات الأخيرة، التي أحالت أذهاننا إلى كيفية فهم التراث، هي التي مثّلت سجالاً معمَّقاً أفرزتها مختلف مواقف النخب العربية المثقفة، بحسب انتماءاتها الإيديولوجية ومرجعياتها العلمية والفلسفية والدينية، وقد كان للمفكر "أركون" نصيبٌ من ذالك. لذا، نبادر بطرح ثنائية: "أركون والتراث"، فنتساءل: كيف فهم "أركون" التراث؟ هل التراث الإسلامي، واحد أم متعدد؟ وأيّ نوع من العقل لأيّ نوع من التراث يريد "أركون" تأسيسهما؟ وهل حضور المناهج الغربية في دراسة التراث الإسلامي يعني تغريب الفكر الأركوني؟ في الحقيقة، هناك العديد من التساؤلات المترابطة فيما بينها، غير أنَّه تُصعب علينا جمعها والإلمام بها في فضاء فرديٍّ فكريٍّ ضيّقٍ، فالمشروع الفكري واحد، لكن مداخله ومخارجه الفكرية والمنهجية والمفاهيمية كثيرة جداً، فلا حاجة لنا لإثقال ذهن القارئ بمكوّنات المشروع الأركوني، ولا لتشتيت انتباهه بذكر مختلف المفاهيم المشكّلة لمشروعه، وما يهمنا هو توضيح علاقة تلك المفاهيم فيما بينها، والتي سنصيغها على شكل ثنائيات، منها: (التراث الإسلامي - التراث الإسلامي الكلي)؛ (العقل الأرثوذوكسي - نقد العقل الإسلامي).

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

2- ب التراثُ فهماً:

عودة إلى ثنائية "أركون والتراث"، ينطلق المفكر "أركون" من إشكالية مصير الثقافات الدينية والإنسانية قبل الإسلام، تلك الثقافات التي جُوبهت بالإقصاء من الفضاء "التراثي الأرثوذوكسي – Tradition orthodoxe" (أركون، م، 1996، ص 43) بدءاً بلحظة التدوين وانتشار التفاسير، حيث بدأت تتشكّل المكوّنات الأساسية لمفهوم التراث الإسلامي مقابل التراث العربي السّابق للإسلام، وبالموازاة بدأت الفجوة تتّسع بينهما حتى تمظهرت في صورة التقابل بالتناقض؛ فلا التراثين (الإسلامي والسابق للإسلام) يتفقان في طبيعة المادة التراثية، ولا حتّى في نوعيتها، وهنا ينطبق عليهما حكم التقابل بالتناقض: "لا يجتمعان معاً ولا يرتفعان معاً"، فصرامة العقل المنطقي في التصديق على القضايا انتقلت إلى صرامة العقل الأرثوذوكسي في التميّز بين مَا يُحرم ومَا يُحلّ، فصرنا نتعامل مع ثنائية: "النور والظلمات"؛ "المقدس والمدنس"؛ "الإسلام والجاهلية"، وفي هذا المعنى، يقول "أركون": "وقد رُميَ التراث العربي السابق على الإسلام كليًّا في دائرة الجهل والفوضى والظلم والضلال والوثنية والقمع والتعسف: أي بكلمة أخرى رُمي كليًّا في "ظلمات الجاهلية". أما التراث بالمعنى الكبير والمثالي للكلمة فهو تراث إلهي لا يمكن للبشر أن يغيروا فيه شيئاً. إنه تعبير عن الحقيقة الأبدية المطلقة" (أركون، م، 1996، ص 19). هذه المقاربة التيولوجية بين التراثين أعطت للتراث الإسلامي صفة التعالي والتقديس والتبجيل، حتّى وُصِف بأنَّه "التراث الوحيد والأوحد" (أركون، م، 1999، ص 190)، والذي استطاع أن يُمثِّل المرجعية النهائية والمطلقة للمسلمين في الدين والفقه على حدٍّ سواء، وهذا ما يُبرّر سقطة العقل الأرثوذوكسي في إغلاق باب الاجتهاد وحجب إعمال النقد عن تفسير النص الديني.

إنَّ حصيلة تلك الرّواسب التراثية التي تلقاها الفرد المسلم جيلاً عن جيلٍ، قد شاركت فيها مختلف المرجعيات الدينية من السنية والشيعية وما لزمهما من اتّباع لأصول الدين ممثلاً في القرآن الكريم والسنة النبوية، لنتحصل على ثلاثة أصول تأسيسية، وهي: النص المقدس مُمثلاً في (القرآن الكريم أولاً، ثمَّ الحديث النبوي) وبعدهما، الشريعة أو القانون الديني، وهذا ما يُعرف زمنيًّا عند "أركون" بفترة القروسطية (أركون، م، 1999، ص 190). الأمر الذي جعل التراث بهذا المعطى المادي خاصة، يمثِّل لدى المسلمين الأوائل والأواخر المرجعية الدينية الوحيدة في فهم النص المقدس وبناء تعاليمه الأصولية والفقهية والتشريعية، وما عدا ذلك من أشكال التراثات الدينية الأخرى فلا يُعتد بها، وكأنَّ الفرد المسلم يشدُّه عقال كلما حاول الانفلات منه شدّهُ إلى الأمام ومنعه من النظر إلى الوراء، هذا الوراء -المراد منه التراث- هو الذي دفع "أركون" أن يميّز في كتابته بالفرنسية بين (Tradition - tradition)، حيث يكون الفارق في كتابة الحرف (T-t)، فاللفظة بالحرف الكبير تفرض نفسها وهيمنتها في كل مكان بصفتها التراث الوحيد والأوحد (أركون، م،

1999، ص 190)، فتحدِثُ تفاوتاً زمنياً وثقافياً؛ **فأمَّا التفاوت الزمني**، فلا حديث إلاَّ عن التراث الديني في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، بعيداً عن ما كان قبل الإسلام وفي الأديان السماوية الأخرى (اليهودية والمسيحية)، وقد مثّل هذا التفاوت قطيعة في الزمن، بل وأوقف الزمن في مرحلة تاريخية محدّدة لا تقبل الإضافة ولا الحذف. **وأمَّا التفاوت الثقافي**، فقد أحدث ولاءً أعمى للتراث الديني، فجعل الفرد المسلم يدعي المعرفة، بل ويملكها، ولسان حاله يقول: "أنا مسلم، إذن أنا أعرف I am muslim ; therefore I know"، وحجته في ذلك، "أنَّ القيم والمواقف الخاصة بالحداثة هي إسلامية الأصل (...) وأنَّ الإسلام عرفها قبل الحداثة الأوروبية بزمن طويل! وللتدليل على ذلك فإنه يختار بشكل اعتباطي بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بعد انتزاعها من سياقها التاريخي والثقافي الخاص بعصر محدد، ثم يقول بأنها تحتوي على كل قيم الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان، إلخ ... وهكذا يقوم بعملية تبجيلية محضة ومغالطة تاريخية حقيقية" (أركون، م، 1999، ص 193). بهذا المعنى الذي يفرضه التراث الإسلامي على الفرد المسلم، يكون معرضاً لاستغراق التراث، وتتريث عقله، ممّا يقلصُ أو يُعدمُ إمكانية التعامل العقلاني والنقدي معه. وفي المقابل يُوسع فرص نمذجة كل التصوّرات والقيم والمعتقدات حسب مقتضيات المخيال الاجتماعي في فترة تاريخية محددة أشرف عليها -كما يقول "أركون"-: ثلثة من الأرثوذكسيات الإسلامية المتنافسة لاهوتياً وسياسياً (أركون، م، 1999، ص 200)، ويُصنِّف "أركون" هؤلاء في ثلاث طوائف إسلامية، وهي: السنية، والشيعية والخارجية. حيث اعترفت السنة بما جمعه البخاري ومسلم، ودعت مجموعتهما بالصحيحين؛ وراحت الشيعة الاثنا عشرية تعترف بالكافي في علوم الدين للكليني، وما أضافه كل من ابن باويه والطوسي؛ وأمّا الخوارج فتعتمد على الجامع الصحيح للربيع بن حبيب مع نهاية القرن الأوّل الهجري (أركون، م، 2012، ص 104). وكأنَّ التراث الإسلامي لم يستقر على صورةٍ واحدةٍ، بل أخذ تمثلات مختلفة باختلاف أبرز الفرق الدينية والسياسية؛ فالتدوين السني للحديث (سنداً ومتناً) ليس هو نفسه التدوين الشيعي ولا التدوين الخوارجي، فكل فرقة ادَّعت لنفسها امتلاك الحقيقة بناءً على أنَّ الإسلام واحد يسير في خط واحد، فليس له إلاَّ معنىً واحداً. من هذه النقطة، يلجأ "أركون" إلى اقتراح مفهومين مفتوحين للإسلام والتراث، يصير كل واحد منهما قابل للتجدّد في كل مرحلة تاريخية ضمن سياقات ثقافية واجتماعية متجدّدة.

3. نقد العقل الإسلامي: محاولة لمطاردة المعنى

أمام هذا المجال الفكري المهترئ، والذي لم يستطع فيه العقل استعادة مقولاته، اتَّجه المفكر "أركون" صوب التراث الإسلامي ليفك عقاله، متبنيًّا في ذلك "نقد العقل الإسلامي Critique of Islamic Raison"، مفهوماً قاعدياً ومنهجاً نقدياً وعنواناً لمشروعٍ فكريٍّ حداثيٍّ. وهذا التّوجُّه،

بلورته إسهاماته التأليفيّة، وترجمته بعض عناوينها، منها كتابه الموسوم "تحرير الوعي الإسلامي: نحوَ الخروج من السِّيَاجَات الدوغمائيَّة المغلقة"، حيث نبَّه "أركون" إلى ضرورة إعادة قراءة النص القرآني، وتفكيك الخطاب الديني، ذلك الخطاب الذي اتَّسم في كثير من فتراته التاريخية التأسيسية بالعصمة والقداسة من لدن فقهاء الحقبة الكلاسيكيّة، واعتقدوا، كما تقول الباحثة "نايلة أبي نادر" أنَّ: "الاجتهاد .. امتيازاً حصرياً بهم فقط. إنهم يزعمون بغرور واضح بأنهم يستطيعون التماس كلام الله مباشرة، كما إنه بإمكانهم أن يفهموا بشكل مطابق كل مقاصده العليا، ومن ثم يقومون بتوضيحها من خلال القانون الديني" (نايلة، أ، 2008، ص131). لهذا المقصد، لم يجد "أركون" مناصاً من إخضاع مجال العقل الإسلامي للنقد، موضحاً ذلك في قوله: "ذلك الإرث من العقائد، والمماسات الاستدلالية المقالية والتكرار السكولاستيكي والتصورات الوهمية التي ينبغي على المفكر المسلم أن يضطلع بها ويواجهها... بزحزحة شروط الاجتهاد النظرية وحدوده من المجال اللاهوتي – القانوني الذي حُصِرَ فيه من قبل الفقهاء، إلى مجال التساؤلات الجذرية وغير المعروفة حتى الآن من قبل التراث الإسلامي" (أركون، م، 1991، ص 17)، إنَّها دعوة يجدِّدها "أركون" في مختلف اللقاءات الصحفية والفكرية إلى إعادة التفكير في الإسلام، مثلما بيَّنه في كتابه المعنون: Rethinking Islam : Common Questions, Uncommon Answers.

وحسب عنوان الكتاب، يشير "أركون" إلى أفضلية استعمال مصطلح "العقل" على مصطلح "التفكير"، مُقتفياً في ذلك أثر المؤرخ الفرنسي "François Furet" في مضمون كتابه " Penser la révolution française"، إذ أنَّ المعنى الذي أراده "أركون"، ليس التفكير في الإسلام، بل "كيف نعقل الإسلام اليوم؟ كيف نفهمه من كل الجوانب وبشكل أعمق ما يكون، بشكل مختلف عن كل ما سبق" (أركون، م، 2012، ص222)، فالمسألة إذاً، تتعلق بشكل كبير في استعادة مقولات العقل الإسلامي لغرض تشكيل معنىً آخر وفق سياقات ثقافية وتاريخية واجتماعية ودينية جديدة اشتغلت في شكل موحدٍ في إنتاج معنى خاص. إن مطاردة المعنى المتخفي وراء تلك التكلسات المعرفية والدينية التي غذتها بعض التوجُّهات الإيديولوجية والأطماع السياسية والانحرافات الفقهية والمذهبية شكَّلت عبر سيرورتها التاريخية غشاوةً تنتظر منْ يبدد ظلامها، وصلابةً تحتاج إلى منْ يفتقُها، إنَّه النقد في أوسع مجالاته، التاريخية والاجتماعية والأنثروبولجية واللسانية، إنَّ النقد كما يعبِّر عنه "أركون": "طاقة تحريريّة... لأنها تبيّن لنا من خلال ضرب الأمثلة التطبيقية، وفي كل مرة، حجم المسافة المقطوعة بين النصّ المؤسِّس (أي القرآن)، وبين النصّ التفسيري المُنتَج من قبل المسلمين" . هكذا، يترشح لنا موقف "أركون" من النقد، ومن إعادة التفكير أو بالأحرى التعقل في الخطاب الديني عامة من خلال مجموع التفسيرات والتأويلات بدءاً من القرن الثالث الهجري، الفترة التي تعالت فيها السيادات الثقافية والأنماط الفقهية والمرجعيات المذهبية.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

*- خاتمة:

ما انتهى إليه المفكر "محمد أركون" من تشخيصٍ فكريٍّ دقيقٍ يعبر بحقٍ عن آلامٍ وحسرةٍ تعيشها الأمة العربية الإسلامية، فجل إسهاماته الفكرية انتهجت منحىً تفكيكيًّا كان المقصد منها إعادة قراءة التراث الإسلامي في أصوله التأسيسيّة، مع السعي نحوَ تخليص الوعي الإنساني من تلك التمثلات المتعالية التي فرضت هيمنتها لأزمنة طويلة.

ونجمل ما توصلنا إليه في نقطتين هامتين، هما:

- تبني "أركون" مفهوم "نقد العقل الإسلامي"، لم يكن مفهوماً خاصاً بنقد العقل، كما يُفهم فلسفيًّا، وإنَّما نقد المنظومات الثقافية في سياقاتها التاريخية والتي أفرزت معانٍ كانت ومازالت تمارس سطوتها على الوعي، مثلما أشار إليها الباحث "لكحل فيصل"، حين قال: "نقد العقل الإسلامي هو بالضبط نقد القيم التي أسس لها هذا العقل عبر تاريخه.."(لكحل، ف، ص110)؛

- أقَّل صورةٍ يمكن تمثلها عن المفكر، أنَّه فيلسوف الاختلاف والجرأة، الفيلسوف الذي لا يرضى أن يغترب في وجوده، أو يسلب فكره أو تُقمع حريته، نقول هذا التوصيف، لأننا ندرك جسامة المفارقة التي كان يعيشها لحظة تأويل النص المقدس وإقباله عليه وبين إلزامية الشروح التي كانت تملى عليه من قبل الفكر المتعالي المتحجر، ناهيك عن المعيقات الإيديولوجية التي استغرقت القارئ العربي والغربي على حدٍّ سواء لحظة تناولهما لمشروع "محمد أركون."

قائمة المصادروالمراجع:

1. أركون، محمد.، (1999). الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الساقي.
2. أركون، محمد. (1996). الفكر الإسلامي: قراءة علميّة، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الثانية). دار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
3. أركون، محمد. (2012). الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة السادسة). بيروت، لبنان: دار الساقي.
4. أركون، محمد. (2001). الإسلام، أوروبا، الغرب، رهانات المعنى وإرادات الهيمنة، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الثانية). بيروت، لبنان: دار الساقي.
5. أركون، محمد. (2000). قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟ ترجمة: هاشم صالح. بيروت، لبنان: دار الطليعة.
6. أركون، محمد. (1996). تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الثانية). بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.

7. أركون، محمد. (1991). من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: دار الساقي.

8. أركون، محمد. (1995). من فيصلِ التفرقةِ إلى فصلِ المقال: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة: هاشم صالح. (الطبعة الثانية). بيروت، لبنان: دار الساقي.

9. الجابري، محمد عابد. (1991). التراث والحداثة: دراسات ومناقشات. (الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

10. الجابري، محمد عابد. (2009). تكوين العقل العربي. (الطبعة العاشرة). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

11. التميمي، هادي عبد النبي، حوراء، عبد الناصر صبيح. (2014). مشروع محمد أركون في نقد العقل الإسلامي وهيمنة المحتوى الغربي في الرؤى والمنهج. مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، (1)، 81-142 تمّ الاسترجاع من الرابط: https://m.iicss.iq/files/files/593mrhi.pdf

12. طرابيشي، جورج. (2000). من النهضة إلى الردّة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة. (الطبعة الأولى). بيروت: دار الساقي.

13. لكحل، فيصل. (2019). العقل الإسلامي في منظور محمد أركون "دراسة تحليلية نقدية"، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران2، (العدد 1، المجلد 8)، 107-123 تمّ الاسترجاع من الرابط: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/74827

14. نايلة، أبي نادر. (2008). التراث والمنهج بين أركون والجابري. (الطبعة الأولى). بيروت: الشركة العربية للأبحاث والنشر.

15. رباني، الحاج. (2018). الجابري والمشكلة الأخلاقية في التراث العربي الإسلامي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران2، (العدد1، المجلد7)، 23-43 تمّ الاسترجاع من الرابط: https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33563